محمد أوسوس (2007)، **دراسات في الفكر الميثي الأمازيغي**، الناشر المعهد الملكي للثقافة الأمازيغية ، سلسلة الدراسات والأبحاث رقم 6، مطبعة المعارف الجديدة ، الرباط، 199 صفحة.

يضم هذا الكتاب دراسة أنثربولوجية لمجموعة من الأساطير التي تشكل حسب رأي المؤلف العمود الفقري للفكر الأسطوري الأمازيغي، حيث يتمثل الرابط بينها في كونها تحمل كثيرا من عناصر وأوجه هذا الفكر في بلاد تامازغا. ويتجلى هذا في كون هذه الأساطير تعبر عن ملامح التصور الأمازيغي التقليدي للكون وللوجود وللحياة، كما تكشف عن التواصل الثقافي بين مختلف الجهات الجغرافية التي يقطنها الأمازيغ رغم اتساعها وتباعدها الجغرافي ومفارقاتها الاجتماعية والسياسية والاقتصادية. هذا وقد كان المؤلف صائبا حيث أنه لم يغفل رصد المؤثرات الناتجة عن التلاقح الثقافي بين الأمازيغ والشعوب المجاورة، الإفريقية والمتوسطية والعربية الإسلامية.

تتجلى أهمية هذا البحث كذلك في جمعه وتدوينه لتراث شفاهي مهدد بالانقراض وإن كان متداولا إلى اليوم في أوساط أمازيغية قروية وحضرية انخرطت، ومنذ سنين، في سياق ثقافي جديد يغلب عليه طابع الثقافة المكتوبة والسمعية البصرية السائدتين واللتين لا تعيران الموروث الشفوي الاهتمام اللائق به.

تعتبر الدراسة أيضا مرجعا للباحثين في التراث الشفوي الأمازيغي وفي الأنتربولوجيا خاصة في شقه الأسطوري الذي يعاني المهتمون من غيابه أو ندرته، كما تشكل دليلا على غنى التراث الأسطوري الأمازيغي عكس ما أعلنه بعض المهتمين به في عهد الحماية بالمغرب ك André Basset و Emile Laoust أو غيرهما.

إذا رجعنا إلى بنية الكتاب، نجدها تتكون من مقدمة ومن تحليل لاثنتي عشرة أسطورة سنعرض أكثرها تداولا في شمال إفريقيا.

من أبرز هذه الأساطير، أسطورة "تاسليت أونزار" التي أصبحت محدودة التداول عكس الطقس الذي نبع منها المسمى "تاغنجا" الممارس بشمال إفريقيا بمختلف أنحائها ومناطقها الناطقة بالأمازيغية أو العربية. تتحدث الأسطورة المتداولة، في القبائل بالجزائر، عن ملك المطر الذي أراد الزواج من فتاة رائعة الجمال فرفضته، الشيء الذي أغضبه ودفعه إلى حرمانها من مياه نهر تستحم فيه، وهو النهر الذي يعد منبع حياتها.

أمام هذا الوضع الجديد، لم تجد الفتاة بديلا عن الاستسلام مستجدية "أنزار" أن يعيد للنهر جريانه، وبالتالي حياتها، وهذا ما فعله حينما ضم إليه الفتاة حيث هطل المطر بغزارة وأعاد للنهر جريانه وللأرض اخضرارها.

يظهر جليا أن هذه الأسطورة المتعلقة بجفاف نهر، ثم انبعاثه وإعادة الحياة المتمثلة في اخضرار الأرض المقترنة بالحياة الزراعية والطقوس التي تعالج إشكالية الخصوبة بشكل عام، ترتبط أيضا بالزواج والسلوك الإنجابي عند الأمازيغ. هذا ما نلاحظه، مثلا، في طقوس الزواج عند رش العروس بماء عين معينة أو استحمامها في النهر. تكاد هذه الطقوس تكون عامة في شمال إفريقيا، ونرى، في كل مرة، أنها تندرج في سياق معتقدات الخصوبة والإحياء، شأنها في ذلك شأن طقس "تاسليت أونزار" أو "تاغنجا" التي تهدف إلى استنزال المطر، وهو ما يعني أن الزواج عند الأمازيغ يتخذ بعدا قدسيا يماثل زواج الملك (السماء) بتسليت أونزار (الأرض). يظهر هذا كذلك عند استقبال العريس لعروسه، وهو على سقف بيته، راميا باللوز والثمر نحوها ونحو الزوار.

إن اقتران العريس بعروسه والسماء بالأرض والملك أنزار بتسليت أونزار تكاملي يُرمز إليه بأشياء واعتقادات كثيرة أخرى، منها كل الطقوس التي تمارس بواسطة المغرفة "تاغنجا" ولعب الكرة التقليدي، المعروف منذ القدم لدى الأمازيغ، حيث تمثل الكرة المرمية في حفرة البذرة، ويمثل اللعب بصفة عامة سقي البذرة والأرض التي غرست فيها...

يستمر الكاتب على نفس المنهج في تحليله لأساطير ومعتقدات أخرى، إذ نجده يربط بين زواج السماء والأرض والخصوبة التي يرمز إليها الفول والنجوم سواء تعلق الأمر بالمحصول الزراعي أو

بعدد الأطفال في الزواج. نرى هذا في رمي العروس لحفنة من الفول في الساقية سبعة أيام بعد زواجها أو اعتقاد أن عدد النجوم في السماء يساوي عدد البشر في الأرض وإذا مات إنسان يسقط نجمه.

بعد التطرق إلى أصل الحياة وخصوبة الأرض والولادة عند البشر، قدم الباحث النظرة الأسطورية لوجود المخلوقات الأخرى (أصل الأحجار والقرد والدموع) وسبب انعدام التلاؤم بين الحيوانات الوحشية بعد أن كانت تعيش في سلم دائم، هذا الانعدام الذي حدده في غرائز الذئب التي تجعله لا يصون العهد.

يبين الكتاب أن الذئب ليس وحده سبب الخروقات التي تعترض المنظومتين الاجتماعية والطبيعية، بل هناك أيضا انعدام القدرة على الحفاظ على الأسرار وتفادي الكلام الجارح تجاه الآخر، كما تشكل أسطورة "تگمارت إيسمضال" رمزا من رموز عدم الانضباط الاجتماعي لكل علاقة جنسية خارج الرابطة الزوجية، ما يشكل خطرا على النظام الاجتماعي الأبيسي.

في الختام، يمكن القول بأننا نجد أنفسنا، خلال قراءة هذه الدراسة حول الفكر الأسطوري الأمازيغي، أمام رؤية قديمة ونظرة كونية واحدة مازالت تؤثر في العادات والتقاليد والاعتقادات رغم أن الإسلام متجذر في المجتمع المغربي. لكن رغم هذا التجذر فإن الممارسة الطقوسية تأخذ طابعا محليا قديما نبع من عمق متوسطي وإفريقي عريقين قاوما النسيان إلى اليوم.

محمد الحيان
المعهد الملكي للثقافة الأمازيغية